مديح كعب بن مالك للرسول صلى الله عليه وسلم

لم يكثر كعب بن مالك (رضي الله عنه) من المديح؛ إذ لم تتوافر له أسبابه ودواعيه، فالعصر الذي عاش فيه وعلى الأخص الفترة التي تألق فيها شعره الإسلامي لم تكن فترة يخصب فيها شعر المديح ويزدهر، لأنها فترة جهاد وتأصيل للعقيدة والمبدأ، لا لتقريظ الأشخاص والسادة والعظماء؟

بقلم: د .محمد علي الهاشمي

فالسيد الأول في هذا المجتمع الأمثل، محمد صلوات الله عليه، كان أزهد الناس في المديح، وأبعدهم عن الاستعلاء وحب العظمة والشموخ، بل كان من هديه: «إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب»[1]، وكان صحابته على سيرته وهديه، لا يتطلعون إلى مديح، ولا يشجعون عليه، وكانت المواهب والجهود والطاقات منصبة جميعاً لإعلاء كلمة الله، ونشر رسالة الإسلام ودحر الشرك وأهله وأصنامه، فكان طبيعياً أن تنطلق القرائح والحناجر والألسنة جميعاً بالدعوة إلى الله، والإشادة بمن اختاره الله لحملها، وأرسله رحمة للعالمين، وبمن آمن به وصدق، وحمل السلاح دفاعاً عنه وعن دعوته ومؤازرة له ونصراً، وأن ينوه الشعراء بالمثل العليا التي بشر بها الرسول الأمين.

ولقد تناول كعب رضي الله عنه هذه الموضوعات جميعاً في قصائده التي رمى بها مشركي قريش، وافتخر بها عليهم، وبذلك تحولت ينابيع المدح عنده إلى حوض الفخر الكبير الذي اغترف منه كعب فأكثر، وأمتعنا بعديد من فنون القول، تؤرخ لهذه الفترة المبكرة من حياة أمتنا الإسلامية وتصور أحداثها ووقائعها وبطولاتها ومثلها ومآثرها.

ومن هنا لا نقع على المديح في ديوان كعب إلا في أبيات مبثوثة في قصائده تناثرت هنا وهناك، وجاءت في سياق الفخر بجماعة المسلمين وبطولاتهم وثباتهم في مقارعة الشرك وأهله، وحسن بلائهم في الحروب، أو جاءت مفردة لتدل في أغلب الظن على أنها مما بقي من شعره الكثير الذي ضاع.

وتدور معظم هذه الأبيات حول مديح الرسول ﷺ وبعضها في مديح بني هاشم ونقباء العقبة.

مديح الرسول ﷺ:

لقد أحب كعب بن مالك رسول الله ﷺ حباً جماً، شأن كل صحابي أكرمه الله بشرف الصحبة فعرف الرسول الكريم، ووقف على عظمة شخصيته ومكارم أخلاقه وحسن سيرته وقويم هديه، وزاده قربه من الرسول ﷺ حباً وإعجاباً.

ومن هذه النفس الزاخرة بحب الرسول ﷺ المفعمة بمشاعر الإعجاب والتقدير لشخصيته العظيمة وأخلاقه العالية، انطلق كعب يعدد بعض ما خص الله رسوله به من مآثر كبرى وصفات عالية، وخلق قويم.

وأول هذه المآثر التي أشاد بها كعب: لمّ الرسول ﷺ شمل العرب، وجمع شتاتهم في أمة واحدة[٣].

لمّ الإله به شعثا ورمّ به
أمور أمته والأمر منتشر

لقد جمع كعب في هذا البيت ما قدمه الرسول الكريم لأمته من خير وعطاء، إذ كان المصطفى الذي اختاره الله ليلم به شتات الأمة ويجمع كلمتها ويرصّ صفها، ويخرجها من التبعثر والتناحر والتنابذ القبلي، إلى التوحد والتآلف والتآخي، فإذا العرب المختصمون المتنابذون المتفرقون في قبائل شتى يجتمعون بقيادة الرسول الكريم لأول مرة في تاريخهم أمة موحدة متراصة، فمن قلب الفرقة والخصومة وتعدد الأهواء واختلاف المآرب والغايات تولدت الوحدة والألفة والتواد وصلاح الأمر!

فالممدوح صلوات الله عليه أداة في يد القدرة الإلهية لم به الشمل، ووحد الصف، وأصلح الأمر، بعد التبعثر والضياع والتفرقة وفساد الحال.

ويصور كعب العظمة التي كان يحملها المسلمون في أنفسهم لرسول الله ﷺ بقوله[٣]:

تعلم رسول الله أنك مدركي
وأن وعيداً منك كالأخذ باليد

فهو مدرك من خالف عن أمره أو شذ عن نهجه وناصبه العداء مهما شطت به الدار، ونأى به المزار، وإن وعيد رسول الله ﷺ محقق لاريب فيه، وكأنه الأخذ باليد، والظفر بالخصم والاستحواذ عليه.

وينكرعلى مشركي قريش عصيانهم أمر رسول الله ﷺ ويعلن محبته له، ويفديه بأهله وماله، ثم يصفه بأنه السيد المطاع الهادي[٤].

عصيتم رسول الله أف لدينكم
وأمركم السيء الذي كان غاويا
فإني وإن عنفتموني، لقائل
فدى لرسول الله أهلي وماليا
أطعناه لم نعدله فينا بغيره
شهاباً لنا في ظلمة الليل هاديا

إنها الطاعة المثلى وإنه التقدير الحق لمن لا عدل له ولا كفء ولانظير، فهو في هدايته لهم، كالشهاب الهادي في فحمة الليل الحالك السواد.

ونجد هذه الإشادة بالرسول المطاع في سياق رده على هبيرة بن أبي وهب في غزوة أحد، بعد أن عرض ما يلقاه المسلمون من تآمر مشركي قريش وكيدهم، وتحفز المسلمين لمواجهتهم[٥]:

وفينا رسول الله نتبع أمره
إذا قال فينا القول لا نتطلع
تدلى عليه الروح من عند ربه
ينزل من جو السماء ويرفع

فرسول الله ﷺ فينا هو السيد المطاع، والقائد المسموع الكلمة النافذ الأمر، قوله الفصل، لا تعقيب عليه، ولا تطلع إلى قول غيره، ذلك أنه الرسول الموحى إليه، الذي لا ينطق عن الهوى، بل يأتيه الروح الأمين بخبر السماء من عند ربه.

وامتدح كعب النبي ﷺ بأصالة العزة والصدق، فقال في معرض رده على قريش في يوم بدر[٦].

نبي، له في قومه إرث عزة
وأعراق صدق، هذبتها أرومها

إنه النبي العزيز الصادق، العريق في عزته وصدقه، ورثهما عن الآباء والأجداد، فالعزة والصدق في أصله، تحدرا إليه مهذبين صافيين عبر القرون.

والصدق صفة عالية عظيمة وهي من أشهر الشمائل التي اتصف بها الرسول الكريم وعرف بها حتى إن قومه سموه قبل البعثة بالصادق الأمين.

وكان كعب يمتدحه بهذه الصفة حين يرد على المشركين، ومن ذلك قوله في يوم الخندق رادا على ضرار بن الخطاب:[٧]

وسائلة تسائل ما لقينا
ولو شهدت رأتنا صابرينا
صبرنا لا نرى له عدلا
به نعلو البرية أجمعينا
وكان لنا النبي وزير صدق
على مانابنا متوكلينا

فمن أسباب صبرهم العنيد على خوض المعارك ومواجهة الشدائد أن النبي ﷺ كان لهم المؤازر الصادق، فصدقه منحهم الثقة، وجعلهم على يقين من سلامة المنطلق، وسمو الهدف ونظافة الوسيلة والغاية، وبوزير الصدق هذا شرفوا على الناس، وارتفع قدرهم على البرية قاطبة، إذا كانوا خير أمة أخرجت للناس.

ومما أشاد به كعب من صفات الرسول ﷺ قيادته الحكيمة وأثرها في تحقيق النصر[٨].

فينا الرسول شهاب ثم يتبعه
نور مضيء له فضل على الشهب
الحق منطقه، و العدل سيرته
فمن يجبه إليه ينج من تبب
نَجْدٌ المقدَّم ماضي الهم معتزم
حين القلوب على رجف من الرعب
يمضي، ويذمرنا عن غير معصية
كأنه البدر، لم يطبع على الكذب
بدا لنا فاتبعناه نصدقه
وكذبوه فكنا أسعد العرب

إنه الرسول القائد، و الشهاب المضيء الهادي، نور يتبعه نور، فهو شهاب متألق، وليس كالشهب، إنه يفضلها جميعاً، وهو القائد الملهم، منطقه الحق، وسيرته العدل، ويقدم كلاً من الحق والعدل لفتاً للأنظار وجلباً للانتباه إلى أثرهما في تكوين شخصية القائد، من أجابه نجا من الخسران والهلاك، وهو شجاع مقدام، ماضي العزيمة، ثابت الجنان، حين تضطرب القلوب، وتنهلع من الخوف، يمضي في جدد الخير، ويحضنا على التقوى، لم تعرف جبلته الكذب، ولم تخلق له، ظهر في حياتنا كالبدر المنير، فآمنا به واتبعناه، وصدقناه فكنا بذلك أسعد العرب.

ويمدح كعب النبي ﷺ في إطار جماعة المسلمين، مبيناً أن جماعتهم متماسكة متينة بفضل قيادة النبي الكريم لها[٥].

لنا حومة، لاتستطاع، يقودها
نبي، أتى بالحق، عف مصدق

وقد جاء هذا المديح في سياق الفخر والإشادة بجماعة المسلمين التي لا يستطيع أحد أن ينالها بسوء، إذ يقوده نبي جاء بالحق، عف، مصدق، لا يتطرق الشك إلى صفاته العالية، وسيرته العطرة.

ومن هذا النمط من المديح ما قاله رداً على فخر قريش بما قتلت من المسلمين في أحد، فقد نوه بما أعد الله للشهداء في جواره من نعيم، وأشاد بالأبطال الأحياء الذين تخطتهم الشهادة، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ[١٠]:

فخرتم بقتلى، أصابتهم
فواضل من نعم المفضل
فحلوا جناناً وأبقوا لكم
أسوداً تحامي عن الأشبل
تقاتل عن دينها وسطها
نبي عن الحق لم ينكل
رمت معد بعور الكلام
ونَبْل العداوة لا تأتلي

إنه مديح في إطار من الفخر بجماعة المسلمين ومجاهديهم الكماة الصيد، وتكتمل الصورة الجميلة الرائعة بإبرازهم أسوداً حماة مقاتلين، تحامي عن الأشبل، وفي وسطهم النبي الصادق الأمين الذي لم ينكل عن الحق، ولم يتقهقر أو يتراجع عن شيء منه، مع أن قريشاً رمته عن قوس واحدة، وحاربته فلم تقصر في حربه، ولقد كانت حربها له حرباً بكل وسائلها: الإعلامية والقتالية.

ومما مدح كعب به النبي ﷺ معجزاته التي أيده الله بها، وهي الخوارق لما تعارف عليه البشر، وما ألفوه في حياتهم[١١]:

فإن يك موسى كلم الله جهرة
على جبل الطور المنيف المعظم
فقد كلم الله النبي محمدا
على الموضع الأعلى الرفيع المسوم
وإن تك نمل البر بالوهم كلمت
سليمان ذا الملك الذي ليس بالعمي
فهذا نبي الله أحمد سبحت
صغار الحصى في كفه بالترنم

يختار كعب معجزتين من معجزات الرسول الكريم، ليقارن بينهما وبين مثيلاتهما من المعجزات التي وقعت للأنبياء من قبل، وأولاهما: تكليم الله، فيقارن بين معجزة تكليم الله موسى عليه السلام على جبل الطور، وتكليم الله محمداً ﷺ على الموضع الأعلى ليلة الإسراء والمعراج.

وثانيهما: معجزة تسبيح الحصى بكف الرسول الشريفة، إذ نطق الحجر الجماد الصلد الأصم مسبحاً بحمد لله، وهي معجزة أكبر من تكليم النمل سليمان عليه السلام.

فمعجزتا الرسول الكريم أكبر وأجل وأضخم وأعظم من مثيلاتهما في تاريخ المعجزات.

لقد مدح كعب بن مالك الأنصاري رسول الله ﷺ فعبر في مديحه هذا عن حبه وإعجابه وتقديره لشخصية الرسول العظيمة، وعدد بعض مآثره الكبرى، ونوه بصفاته العالية وأشاد بخلقه العظيم، وفداه بأهله وماله، وصور طاعة المسلمين لقيادته الحكيمة الصادقة التي جعلت من جماعة المسلمين الأولى صفاً واحداً كالبنيان المرصوص تسير وراء النبي الصادق الأمين بهدي وتوجيه من ربه الذي نصره، وأسال على يديه المعجزات ■

الهوامش:

(١) أخرجه الشيخان وأحمد والترمذي.
(٢) الديوان: ٢٠٨ .
(٣) الديوان: ٢٩٣.
(٤) الديوان: ٢٩١ .
(٥) الديوان ٢٢٤ .
(٦) الديوان ٢٦٦ .
(٧) الديوان ٢٧٩ .
(٨) الديوان: ١٧٤، ١٧٥.
(٩) الديوان ٢٤٢ .
(١٠) الديوان: ٢٥٤.
(١١) الديوان: ٢٧٠ .